

خُلق التعاون



القرآن الكريم توجد فيه آيات محكمات، أي "قواعد كافية"، وآيات مفصلات، أي "قواعد جزئية تفصيلية". استمع معي لهذه الآية الكريمة: (الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصَّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ) (هود/1)، الكليات مثل قوله تعالى: (وَقَضَى رَبُّكَ أَلا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيمَانُ وَبِالْإِيمَانِ إِحْسَانًا) (الإسراء/23). والجزئيات مثل قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَاءَنْتُمْ بِرَدَيْنِ إِلَى أَجَلٍ مُسَمٍّ فَاكْتُبُوهُ) (البقرة/282). وهنا يأتي السؤال: هل الأخلاق من الكليات أم من الجزئيات؟ بمعنى: هل هي من كليات الدين أم جزئياته؟ الأخلاق من القواعد الكلية للشريعة الإسلامية، بل كل الأديان السماوية كانت الأخلاق من كلياتها. لذلك، يقول النبي (ص): "إِنَّمَا بُعْدَتْ لِأُتْمَمَ مَكَارِمُ الْأَخْلَاقِ"، ما يدل على أنها في كل الشرائع السابقة. لابد أن تفهم الدين هكذا وتشعر بقيمة الأخلاق وأهميتها على هذا النحو، وتكون أحرص على الحفاظ على الكليات. إياك من أن تضيع الكليات وتصغرها، وتكبر الجزئيات، فتحدث فوضى في حياتك وفي دينك. لذلك، كان أبو بكر الصدّيق يقول: "إِنَّمَا يَقْبَلُ نَافِلَةً حَتَّى تُؤْدَى فِرِيقَةً". والنبي (ص) لمّا سُئُلَ عن المرأة التي تقوم الليل ولكنها تُؤْذِي جيرانها قال: "هِيَ فِي النَّارِ لِمَا دَرَأَتْ لَا زَوْجَهَا لَمْ تهتم بالكليات. خُلق هذا الموضوع من هذه القواعد الكلية، ومهم جدًا، هو خلق التعاون. التعاون لفظة قرآنية وقاعدة كافية قال تعالى: (وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبَرِّ وَالْتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ).

وَالْعُدُوُّ وَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ) (المائدة/ 2).
ثمَّ ختم أَمْ الآية بأمره سبحانه وتعالى بالتقوى والتحذير من شدة العقاب، فقال:
(وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ). والمعنى: احذروا مَغَبَّة
التعاون على الإثم والعدوان وترك التعاون على البر والتقوى، ومن العاقبة في ذلك شدة
العقاب لمن خالف أمره وارتكب نَهْيَه و تعدُّ حدوه. وقد اشتملت هذه الآية على جميع
مصالح العباد في معاشهم في ما بينهم بعضهم بعضاً، وفي ما بينهم وبين ربهم، فإن كل عبد
لا يَنْدُفَك عن هاتين الحالتين وهذين الواجبين: واجب بيته وبينه وبينه وبين
الخلق. فأمّا ما بينه وبين الخلق من المعاشرة والمعاونة والصحبة، فالواجب عليه فيها أن
يكون اجتماعه بهم وصحبته لهم تعاوناً على مرضاة الله وطاعته، التي هي غاية سعادة العبد
وفلاحه، ولا سعادة له إلا بهما وهما البر والتقوى، اللذان هما جماع الدين كله. والمقصود
من اجتماع الناس وتعاونهم هو التعاون على البر والتقوى، فيعين كل واحد صاحبه على ذلك
علمًا وعملاً. فإنَّ العبد وحده لا يستقلُّ بعلم ذلك ولا بالقدرة عليه، فاقتضت حكمة رب
سبحانه أن جعل النوع الإنساني قائماً بعضه ببعضه مُعيناً بعضه لبعضه.

فالإنسان ضعيف بوصفه فرداً، قوي باجتماعه مع الآخرين. وشعور الإنسان بهذا الضعف يدفعه
حتماً إلى التعاون مع غيره في أي مجال، فأمر الله العباد أن يجعلوا تعاونهم البر
والتقى. ومن العجيب، أنَّ هذه الآية جاءت وسط آيات تتكلم عن صراع مع الآخر (ولَا
يَجِدُ رَمَدَ كُمٌ شَدَّانُ قَوْمٍ عَلَى أَلَى تَعْدِلُوا أَعْدَلُوا هُوَ أَقْرَبُ
لِلْمَقْوِي) (المائدة/ 8). وعلى الرغم من العداء جاء الأمر قوياً (وَتَعَاوَنُوا)،
وطبقها النبي (ص) عندما قال: "لو دَعَتُنِي قُريش إلى حلف الفضول لأجبت". هذا
التعاون، أمرٌ من القواعد الكلية للشريعة، التي تُطبّق على الأفراد والجماعات والدول
والمنظمات في جميع المجالات، التي فيها بُرٌّ من مبادرات: بحث علمي، مُذاكرة، مشروع
خيري، إصدار قانون، داخل الأسرة، كلما تشجيع للآخرين.. كل هذا من التعاون. وقد جاءت
كقاعدة كلية لم تخص ديناً أو عرقاً أو جنساً لهذا التعاون، بل تناطب الإنسان كله في كل
العالم. وأحد أهم الأسباب في غياب المسلمين عن الوضع العالمي، هو غياب روح التعاون
بينهم، وغياب ثقافة العمل كفريق. نحن ناجحون نا بغيره كأفراد، ولكن في العمل الجماعي
غير ناجحين كمؤسسات. يمكننا حصر الكثير من النوازع على المستوى الفردي، ولكن: هل
نستطيع أن نُعدَّكم مؤسسة ناجحة في العالم العربي؟ التدريب على التعاون يبدأ من داخل
الأسرة، ويُولَّد حُبّاً ورحمة، ويحمي الأبناء من الانحراف. استمع معي لهذه النماذج التي

تؤكد لك هذا المعنى. سيدنا إبراهيم وسيدنا إسماعيل (ع) كانوا في بناء الكعبة قمةً التعاون بين الأب والابن، وتربيته لابن على هذا الخلق العظيم خلق التعاون: (وَإِذْ
يَرُّ فَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلَ
مَنْهَا إِنَّكَ أَزْتَ السَّمَاءِ الْعَالَمِيْمُ * رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنَ
لَكَ وَمِنْ دُرِّ يَسْتَدِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرْزَانَا مَذَاسِكَنَا وَتُبْ
عَلَيْنَا إِنَّكَ أَزْتَ التَّوَابُ الرَّحِيمُ (البقرة/ 128-127). بعدما جاء الأمر
الإلهي لسيدنا إبراهيم ببناء البيت، سار إبراهيم (ع) إلى مكة المكرمة، فلمّا وصل إلى
مكة وجَد إسماعيل يُصلح نبلاً له وراء زمم، فقال له: يا إسماعيل إنّا قد أَمَرْنَا أن
أبني بيتك. قال له إسماعيل: فأطْلَعْ ربك. فقال له إبراهيم: قد أمرك أن تُعينني على
بنائه. قال: إذن أفعل. فقط إبراهيم إلى مكان البيت، فجعل يَدْنِي وإسماعيل يُناوله
الحجارة، وكلما أَنْهَيَا بناء صف منها، ارتفع مقام إبراهيم به حتى يَبني الذي فوقه،
وهكذا حتى تمّت عماراتها. وكذلك تم تطبيق هذا الخلق أيضاً بين النبي (ص)، وسيدنا علي بن
أبي طالب (رض)، في بداية الدعوة. بل قد حدث هذا التعاون بين النبي (ص) وأبي طالب نفسه،
عندما تعاون معه في تربية سيدنا علي، لما زادت عليه النفقه. إنها عائلة متعاونة. ولقد
ضرب النبي (ص) وصحابته الكرام أروع الأمثلة الواقعية وأجلّها في روح التعاون والتكافل،
كما ربّاهم الله تعالى على ذلك، لتنبعث فيهم عزائم التعاون الأخوي على مكارم البذل
والإيثار والتضحية والفداء. مثل ذلك أيام حَفْرِ الخندق لمواجهة حصار الأحزاب. وقد بلغ
من تلاميذ الصحابة وصبرهم وتحصيّاتهم مبلغاً عظيماً وعجيباً من التعاون، في كل شيء من
أحوالهم، على الرغم من الطرف العصي، وما كان يكلفهم من الفزع والمشقة والكرب العظيم،
الذي ليس له من توصيف مُبين إلا قول الله تعالى: (إِذْ جَاءَ وَكُمْ مِنْ فَوْقَ كُمْ وَمِنْ
أَسْفَلَ مِنْ كُمْ وَإِذْ رَأَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَاغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ
وَتَطُنُّونَ بِاللَّاهِ الطُّنُوزَ * هُنَالِكَ ابْتُلُونَ الْمُؤْمِنُونَ
وَرُلْزِلُوا رِلْزِ الْأَشَدِيْدَ) (الأحزاب/ 10-11). وقد كاشف لهم الله تعالى جراء تعاونهم
وصبرهم، فكفاهم القتال وردّ أعدائهم على أعقابهم مفتاطين خائبين: (وَرَدَ اللَّهُ
الْأَذْيَنَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنْتَلُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ
الْمُؤْمِنُينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا) (الأحزاب/ 25). ويُربّي
الإسلام المؤمن على هذا الخلق العظيم والعمل بمقتضاه، كما يُبيّن القرآن الكريم والسنة
النبوية. فلقد قَمَ القرآن علينا أمثلة حيّة في ذلك للعبرة والاقتداء، كما في حال موسى
(ع) يسأل ربه أن يعينه ويسد أزره بأخيه هارون: (وَاجْعَلْ لَيْ وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي
هَارُونَ أَخِي * اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي * وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي) (طه/ 29-32)،

فاستجاب الله دعوته: (قَالَ سَنَشُدٌ عَمْدَكَ بِأَخْيَكَ وَزَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصْلُونَ إِلَيْكُمَا) (القصص/ 35). وفي مثال ذي القرنين الذي آتاه الله تعالى واسع السلطان وفتح البلدان، ومع ذلك يستعين بمن استنجدوا به على طلز بأجوج وأوجوج وإفسادهم: (قَالَ مَا مَكَّنَنِي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعْيَنْوْنِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمَانًا) (الكهف/ 95). ولأن تطبيق هذا الخلق يجلب السعادة للفرد والمجموع فقد أمر به النبي (ص) في كل الأوقات، بل وشبّه مَن يتحلّى بكامل الإيمان، يقول عليه الصلوة والسلام: "لا يُؤْمِن أحدَكُم حتى يُحِبَّ لأخيه ما يحب لنفسه" (متفق عليه). ويقول عليه الصلوة والسلام: "المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه ببعضه" وشك بين أصابعه" (متفق عليه). ويقول النبي (ص) أيضاً: "مثل المؤمنين في تَوَادُّهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكت منه عضو تَدَاعَى له سائر الجسد بالسهر والحمى" (متفق عليه). مَن مذَّا يحقق هذا المقصود الكلي من مقاصد الشريعة في بيته، مع أبيه وأمه، مع صديقه، مع كل الناس؟ هيّا، قُمْ وابحث عنّي يحتاج، وتعاون مع كل مَن حولك في العمل التطوعي، وفي الجمعيات التنموية والخيرية، ولا تضيع هذا الخلق العظيم من حياتك. وأخيراً، أكثـر من دُعـاء النبي (ص): "واهدـني لأحسنـ الأخـلاقـ، لا يهـدي لأحسـنـهاـ إـلاـ أـنتـ، واصـرفـ عنـيـ سـيـئـهاـ إـلاـ أـنتـ".